أسلوب التكرار ومثيراته الدلالية في الصحيفة السجادية

الدكتور رسول بلاوي (أستاذ مساعد قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة خليج فارس – بوشهر)
r.ballawy@gmail.com
الدكتور حيدر فرع شيرازي (أستاذ مساعد قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة خليج فارس – بوشهر)

الملخص:

إنّ التكرار من الصنايع الأدبيه فى كلام العرب وهو أسلوب من أسالِب البلاغه يستعملونه في خطاباتهم، لأنّه يزيد الكلام بلاغة إذا كان في محلّه وقد جاء وفقا لمقتضى الحال. ظاهرة التكرار تُعدّ من الظواهر البارزة فى النص، ولا شكّ أنها ترتبط بعلاقةٍ ما مع صاحب النص فهو من خلال التكرار يحاول تأكيد فكرةٍ ما تسيطر على خياله وشعوره. ويعد وسيلة من وسائل تشكيل الموسيقى الداخلية. التكرار لا يقوم فقط على مجرد تكرار اللفظة في السياق، وإنما ما تتركه هذه اللفظة من أثر انفعالي في نفْس المتلقّي، وبذلك فإنه يعكس جانباً من الموقف النفسي والانفعالي، ومثل هذا الجانب لا يمكن فهمه إلّا من خلال دراسة التكرار داخل النص الذي ورد فيه، فكل تكرار يحمل في ثناياه دلالات نفسية وانفعالية مختلفة تفرضها طبيعة السياق. وأدعية الصحيفة السجاديّة للإمام زين العابدين (ره) فضلا عن المعاني الساميّة فإنّها تضمّ بين دفتيها آليات وأساليب فنيّة تدلّ على مدى جماليات النص وروعته، وتساعد عملية إيصال الفكرة للمتقلي؛ والتكرار من هذه الظواهر الحاضرة بشدّة في الصحيفة وقد يوحي بدلالات ومعان عميقة حسب السياق؛ الصحيفة السجاديّة مشتملة على معان سامية لاتستوعبها الكلمات المحدودة فاقتضى التكرار فى الفاظها كـأسلوب أدبى لإبلاغ المعاني.

وفي هذا المقال وفقا للمنهج الوصفي – التحليلي، قمنا بدراسة ظاهرة التكرار في الصحيفة السجاديّة والتي تشكّلت هذه الظاهرة في النص بأشكال متنوعة فهي تبدأ من الحرف وتمتدّ إلى الكلمة والعبارة، وكلّ شكل يعمل على إبراز جانب تأثيري خاص. وقد توصّلنا إلى أنّ التكرار في الصحيفة السجاديّة مثيراً للانتباه، وداعياً للإهتمام بالشيء المكرّر، ومن ثمّ فقد حقّق تفاعلاً عاطفياً وشعورياً وإيقاعياً مع المتلقي بكافة أشكاله. وأيّاً كانت صور هذا التكرار فإنه سلّط الضوء على بعض الجوانب اللاشعورية في نفْس الإمام، والتي تلحّ عليه كأنه لا يودّ مجاوزة العبارة المكررة إلى غيرها.

الكلمات الدليلية: الإمام السجاد (ره)؛ الصحيفة السجاديّة؛ التكرار؛ الأسلوب.

المقدمة:

تعتبر ظاهرة التكرار من أهم الظواهر الأسلوبية التي يعني بها البحث اللغوي الأسلوبي، من حيث إنّها تحيل إلى دلالات أعمق تتوارى خلف البنية السطحية للخطاب، لذلك تتوفر في الكتابات، على أنها سمة أدبية تستدعي الانتباه والاهتمام من قبل قارئ الخطاب الأدبي، فقد تكون «طبيعة الموضوع المعالج تقتضي تكرار معان بعينها وأفكار بعينها لتوظف فنيا وتقنيا في مواقف سردية معينة» (مرتاض، 1995م: 268).

وقد درس البلاغيون والأدباء هذه الظاهرة الفنيّة وعُنوا بها عناية واسعة؛ فسمّوها تارة «التكرار»، وأخرى «الإعادة» أو «التَّرداد»، وحاولوا أن يبيّنوا صورها وأسبابها وفوائدها. ولا يخفى أنّ من فوائد التكرار: التأكيد والتقرير، الموعظة، رعاية الموسيقى الداخليّة، المبالغة في مدح أو الذّمّ، التفسير والتوضيح، التأثير في عمق النفوس، التفكر

والتدبر في أسرار التكرار. وقد وجدنا هذه الظاهرة الأسلوبية وفوائدها متجسّدة في الصحيفة السجادية للإمام السجاد (ع).

الصحيفة السجادية هي الوثيقة الثابتة التي أكّدت إمامة الإمام السجاد عليه السلام وهي مناجاة الإمام السجاد لله سبحانه وتعالى، وهي عبادته وسجوده وطاعته، وهي التبتّل، وهي العروج إلى الله. المعارف الإسلامية في الصحيفة السجادية صيغت بالدعاء، وهذا الأمر يشير إلى الظروف السياسية التي سادت بعد استشهاد الامام الحسين عليه السلام، فالصحيفة السجادية هي ما أمكن أن يعطيه الإمام زين العابدين عليه السلام للأمة من معارف الاسلام دون أن يتمكّن السلطان الظالم من أن يراقب هذه المعارف.

هذه الصحيفة تمتاز بأسلوبها الفني وخطابها البلاغي، فهي من النصوص الخالدة الخصبة بمادّتها وعطاءها؛ وهذا ما دعانا أن نقوم بدراستها بغيّة الكشف عن بعض جوانبها الجماليّة. وقد رشحنا ظاهرة التكرار لتكون محورا لهذا البحث لما فيها من جماليات ودلالات عميّقة. فالتكرار أضفى جمالاً وثراءاً لنص الصحيفة وقد أخرجه من السطحية إلى الظرافة والبراعة الفنيّة؛ كما ساهم في خلق أجواء مموسقة تدفع القارئ إلى التلذّذ والتمتّع بنصها وتبعده عن التعب والملل. وإنّنا نهدف في هذه الدراسة أن نبيّن الجماليات الكامنة وراء ظاهرة التكرار في الصحيفة ودورها في دعم المعاني المقصودة وخلقها للإيقاع. وسوف نحاول أن نجيب عن الأسئلة التالية:

- ما هي القيمة الفنيّة للصحيفة السجاديّة؟

- ما هو سبب الإلحاح على الأساليب البلاغية والجمالية في الصحيفة؟

- ما مدى تأثير وفاعليّة ظاهرة التكرار في الصحيفة السجاديّة؟

خلفية البحث

لقد اهتمّت عدة دراسات من الباحثين المعاصرين بأسلوب التكرار ومظاهره وآثاره في القرآن الكريم، أو في شعر شاعر معيّن، كمقال «التكرار في الفاصلة القرآنية: الجزء الأخير من القرآن الكريم نموذجاً» لفصيل حسين طحيمر غوادرة في جامعة القدس المفتوحة. وكدراسة حول «ظاهرة التكرار في شعر أبي القاسم الشابي» قام بتأليفها زهير أحمد المنصور؛ كما فعل موسى ربايعة في بحثه المقدّم لمؤتمر النقد الأدبي الثاني بجامعة يرموك سنة 1988م، الذي يحمل عنوان «التكرار في الشعر الجاهلي»؛ كما نجد في مقال دهنون أمال الموسوم بـ «جماليات التكرار في القصيدة المعاصرة» في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية؛ ومقال «التكرار ودلالته في ديوان الموت في الحياة لعبد الوهاب البياتي» لإلياس مستيري في مجلة كلية الآداب واللغات.

أمّا الدراسات التي تناولت موضوعات أدبية حول الصحيفة السجادية فقليلة جدا، منها: «الجمالية في الصحيفة السجادية»، لـغلامرضا كريمي فرد، مجلة العلوم الإنسانية، العدد الثاني العشر؛ و«بينامتنيت قرآني در صحيفه سجاديه» (التناص القرآني في الصحيفة السجادية) لـعباس اقبالي وفاطمه حسن خاني؛ و«ادبيات سخنان امام سجاد (ع) وصحيفه سجاديه» (أدب كلام الإمام السجاد والصحيفة السجادية) لـسيد فضل الله ميرقادري، مجلة انديشه ديني، العدد الخامس العشر؛ و«آرايه‌هاى بديعي در صحيفه سجاديه» (المحسنات البديعية في الصحيفة السجادية)، لـصديقه مظفري وسيد محمدرضا ابن‌الرسول، مجلة كاوش‌نامه، العدد السابع العشر. وكذلك وجدنا رسالة لنيل درجة الماجستر عنوانها «آرايه‌هاى بديعي در صحيفه سجاديه» بجامعة إصفهان باللغة الفارسية، إعداد طالبة صديقه مظفري تحت إشراف السيد محمدرضا ابن الرسول وبمساعدة محمد خاقاني، ومقال مسوم بـ "دراسة الموسيقى الداخلية في الصحيفة السجادية" للباحث حسن خلف وآخرين في مجلة بحوث في اللغة العربية وآدابها المنشورة من جامعة اصفهان. وإنّنا لم نعثر على

دراسة حتى الآن مخصصّة لموضوع التكرار في الصحيفة السجاديّة وهذه الدراسة هي الأولى والفريدة من نوعها.

شخصيّة الإمام السجاد (ع):

ولد بالمدينة سنة ثمان وثلاثين من الهجرة. وقبض بالمدينة سنة خمس وتسعين، وله يومئذ سبع وخمسون سنة. وأمه شاه زنان بنت شيرويه بن كسرى أبرويز، وقبره ببقيع المدينة (المفيد، 1410هـ: 472).

قال أهل البيت عليهم السلام إن الذي سمّاه (زين العابدين) جده رسول الله’، حيث أخبر أنه سيولد للحسين ولدٌ يسميه علياً، ينادى يوم القيامة بزين العابدين (الكوراني، 1427م: 8) كنيته أبو محمد، ويكنى بأبي الحسن أيضاً، وبأبي القاسم. ولقبه: سيد العابدين، وزين العابدين، والسجاد، وذو الثفنات. كانت أشد الظروف التي مرت على الإمام: كربلاء، والأسر، وأيام وقعة الحرة، وفترة سيطرة ابن الزبير على المدينة بعد هلاك يزيد.

الإمام (ع) متألهٌ كل حبه لربه، وكل فكره وذكره وخشوعه ودموعه، في يومه وليله، وحله وترحاله؛ وهو مع ربه عز وجل في غاية الأدب، ينتقي في تصرفاته الحركة والسكون، لأنه يعيش في محضر ربه عز وجل. (السابق: 20).

الدعاء:

الدعاء يُعدّ نوعاً من الممارسة الوجدانية حيال الله؛ ويفترق عن سائر ألوان التعبير الفني بكونه يجسّد تجربة داخلية تتواصل مع الله مباشرة. يظل البعد الوجداني هو البطانة العامة لأدب الدعاء بما في ذلك: النمط الموضوعي منه، بصفة أن الداعي ينفعل بالحقائق الموضوعية التي يتجه بالدعاء من خلالها.

وقد يستخدم الداعي في مناجاته تقنيّة المونولوج؛ فهذه تقنية تتمحور حول أحادية الصوت، إنها حوار باطني أكثر غورا في أعماق النفس، كشفا عن المشاعر والخلجات الداخلية التي تعتمل في مكنون النفس، حيث « تنشطر الأنا إلى قسمين، وكأن نصف الذات ينفصم عن الآخر، ليكون شاهدا عليه ومحاكما له» (شفيقة، 2002م: 389).

الدعاء في الصحيفة:

إنّ أهمية الدعاء غير خفية على أحد لما نزل في الكتاب وورد في الروايات؛ والذي نريد تسليط الضوء عليه هنا هو ما تمثّله أدعية الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام من دور بنّاء ضروري في حياة المؤمن لما تحمله من أساليب ومعاني راقية في دعاء المولى سبحانه وبنفس الوقت هي دستور حياتي في المثل والأخلاق والفضائل يتربّى على مبادئها كل إنسان يريد الكمال وبلوغ الذروة في خط الإنسانية.

الصحيفة السجادية التي جمعت أدعية الإمام ومناجاته وابتهاله والقيم العالية والتي سميت بإنجيل أهل البيت عليهم السلام وزبور آل محمد (ص) بما ضمت من مبادئ الأخلاق والحقوق والواجبات والآداب، تعالج مشاكل الفرد والمجتمع وتنشر أجواء روحية تدعو إلى الثبات عندما تعصف المغريات وتشد الإنسان إلى ربه حينما تجرّه الأرض إليها. وليس للمؤمن غنى عنها في كل مفاصل حياته ظالماً أراد السير على الصراط المستقيم.

كتابٌ لم يعرفه الناس، تَبْهُرُك فيه قدرة معماره على بناء العبارة العربية، فهو أقدر من المؤلف البليغ الممسك باللغة وتراكيبها؛ تجد مفردات العربية تدور فيه كالنجوم أفعالاً وأسماءً وحروفاً وصِيغَ تعبير، تعرض نفسها على أنامل فكر الإمام (ع) ليجعلها آجرَّةً في أحد صروحه، أو لُحمةً في إحدى لوحاته. من أفقٌ جمالي عالٍ، ينحدر كلام

الإمام (ع)، أروعَ من عقد الجوهر، وأجمل من نظيم الورد، معانيَ ونسيماً، جائيةً من معدن أعلى ومنبع أغنى (الكوراني، 1427م: 25).

هذه الصحيفة السجادية ليست دعاء للمهزومين، وليست دعاء للضعفاء، وليست دعاء للزاهدين في الدنيا، هذه الصحيفة هي دعاء المجاهدين، هي كلمات المجاهدين ومناجاة المجاهدين، هي روحهم، هي مشروعهم الذي هو خط النبوة وخط الإسلام وإقامة العدل الإلهى في العالم، هذا هو المشروع.

«فإن الصحيفة السجادية ليست أدعية وكفى بل هي مدرسة المبدأ والعقيدة والصبر والتضحية والتسامح والرحمة والثورة على الشر والفساد بشتى ألوانه وأشكاله... إلى كل مكرمة وفضيلة» (مغنية، د.ت، صص 42-43). أما أسلوب الصحيفة وسماتها فمن الصعب على أي كاتب أن يصفه على حقيقته أو يصف الأثر الذي يتركه في نفس القارئ والسامع ولكن بحسبنا أن نشير إلى بعض خصائص أدب الدعاء فيها.

«يظلّ البناء الفنّي عند الإمام السجاد (ع) مطبوعاً لسمات أولاها أن يقترن الدعاء – مهما كان نمطه- بالتمجيد لله تعالي، من جانب، وبالصلاة على النبيّ (ص) وآله من جانب آخر، فمادام الدعاء هو محاورة انفرادية مع الله تعالى فحينئذٍ تظل أولى سماته هي الخطابية من نحو عبارة اللهم أو إلهي وسواهما حيث تستدعي مثل هذه العبارات حمداً أو ثناء بالضرورة، كما تقترن – في الغالب- بالصلاة على محمد وآله أيضاً بصفتهم عليهم السلام وسائل للتقرب إلى الله تعالي» (البستاني، 1413، ص366).

التكرار لغة واصطلاحاً

الرجوع، يقال: كَرَّه وكَرَّ بنفسه... والكَرُّ: مصدر كَرَّ عليه يَكِرُّ كَرّاً وكُروراً وتَكْراراً: عَطَفَ... وكَرَّرَ الشَّيءَ وكَرْكَره: أَعاده مرّة بعد

أخرى... والكَرُّ: الرّجوع على الشّيء، ومنه التَّكرارُ... قال الجوهريّ: كَرَّرْتُ الشّيءَ تَكريراً وتَكراراً؛ قال أبوسعيد الضّرير: قلتُ لأبيعمرو: ما بين تِفعال وتَفعال؟ فقال: تِفْعالٌ اسمٌ، وتَفْعالٌ بالفتح مصدرٌ (ابن منظور، 1414هـ، ص 135).

وفي الاصطلاح البلاغي: «تكرار الكلمة أو اللفظة أكثر من مرّة في سياقٍ واحد لنكتة» (ابن معصوم المدني،1968م، ص 34)، ولهذه الظاهرة موقع خاص في علوم البلاغة؛ إذ ترتبط بالتأكيد من جانب، وبالإطناب من جانب آخر، مع ما بها من خصائص تمتاز بها عن الجميع.

ولأسلوب التكرار أهمية خاصة؛ إذ هو: أسلوب تعبيري يصوّر انفعال النفس بمثير... ، واللفظ المكرَّر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة، لاتصاله الوثيق بالوجدان؛ فالمتكلم إنما يكرّر ما يثير اهتماماً عنده، وهو يحبّ في الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه، أو مَن هم في حكم المخاطبين ممّن يصل القول إليهم على بُعد الزمان والديار» (السيد، 1407هـ، ص 136).

ويلعب التكرار دوراً مهمّاً في بعث الموسيقى الداخليّة؛ كما أنّ له وظيفة مزدوجة الأداء «تحمل مع التوثيق للمعنى، ودفع المساهلة في القصد إليه قيمة صوتيّة وفنّية تزيد القلب له قبولاً، والوجدان به تعلّقاً» (القاضي، 1981م: 88)، ولذا فقد اتُّخذ التكرار وسيلة لتحقيق الموسيقى، التي هي بلا شك «أقوى وسائل الإيحاء، وأقربُ إلى الدلالات اللغوية النفسيّة في سيولة أنغامها» (الحمداني، 1989م: 246).

التكرار في الصحيفة:

ومن خلال متابعتنا للصحيفة السجادية وجدنا أنّ التكرار قد جاء فيها على قسمين: القسم الأوّل هو تكرار صوتي يتمثل بتكرار الحروف

والقسم الآخر تكرار لفظي يتمثل بتكرار الكلمة وتكرار العبارة بصور مختلفة. فيتحقق التكرار في الصحيفة عبر عدّة أنواع:

1- تكرار الحرف: وهو يقتضي تكرار حروف بعينها في الكلام، مما يعطي الألفاظ التي ترد فيها تلك الحروف أبعاداً تكشف عن حالة نفسية.

2- تكرار اللفظة: وهو تكرار بعيد اللفظة الواردة في الكلام لإغناء دلالة الألفاظ، وإكسابها قوةً تأثيرية.

3- تكرار العبارة أو الجملة: وهو تكرار يعكس الأهمية التي يوليها المتكلم لمضمون تلك الجمل المكررة باعتبارها مفتاحاً لفهم المضمون العام الذي يتوخّاه المتكلم، إضافة إلى ما تحققه من توازن هندسي وعاطفي بين الكلام ومعناه.

تكرار الحرف:

تكرار الحرف الواحد الذي هو من بنية الكلمة، وهذا النوع من التكرار لا يقتصر دوره على مجرد تحسين الكلام، بل يمكن أن يكون من الوسائل المهمة التي تلعب دورها العضوي في أداء المضمون. يُعدّ هذا التكرار أبسط أنواع التكرار، لقلّة ما تحمله هذه الحروف من معان وقيم شعورية قد لا ترتقي إلى مستوى تأثير الأفعال والأسماء والتراكيب.

يلعب تكرارُ الحروفِ دوراً عظيماً في الموسيقى اللفظيّة، فقد تشترك الكلمات في حرف واحد أو أكثر، ويكون لهذا الاشتراك فائدة موسيقيّة عظيمة، وقيمة نغميّة جليلة تؤدي إلى زيادة ربط الأداء بالمضمون (القاضي، 1981م: 501).

والتكرار الصوتي ناتج من تكرار الحروف التي تعدّ بمثابة المادّة الرئيسة التي تثري الإيقاع الداخلي للنصّ بلون خاصّ و«يحمل في ثناياه قيمة دلالية، إذ يضيف إلى موسيقية العبارة نغمات جديدة» (عبدالرحمن،

1994م: ص94). وسنرى في التالي مدى إستفادة الإمام من الطاقة الدلالية الكامنة لهذه الأصوات:

يقول عليه السلام في دعائه إذا مرض أو نزل به كرب أو بلية: «أَمْ وقْتُ العِلّةِ التّي مَحّصْتَني بِها والنِّعَمِ الَّتِي أَتْحَفْتَني بِها، تَخْفيفاً لِما ثَقُلَ بِهِ على ظَهْري مِنَ الخَطيئاتِ وتَطْهيراً لِما انْغَمَسْتُ فِيهِ مِنَ السَّيئات وتَنْبيهاً لِتَناوُلِ التَّوبَةِ وتَذكيراً لِمَحْوِ الحَوبَةِ بِقَدِيمِ النِّعْمَةِ (الصيفة السجادية، الدعاء الخامس عشر).

نلاحظ في هذه الفقرات أنّ حرف التاء تكرر تسع عشر مرّة وأعطى النصّ نغماً موسيقيا داخليا، لها وقع في الآذان والأسماع وهو من الحروف المهموسة التي توحي بنوع من الحزن والكآبة. ومما يزيد في جمالية موسيقى هذه الفقرات تتابع حرف التاء وتكراره النسقي في أوّل الكلمات الأربع «تَنْبيهاً، تَناوُلِ، التَّوبَةِ وتَذكيراً» حتى إنّه ليصور لنا عن طريق توالي حرف التاء، تداوم حزن الإمام زين‌العابدين (خلف وآخرون، 1392ش: 71).

وتسير الميم التي تعدّ من الحروف الشفوية جنباً إلى جنب التاء ويرى الناقد محمد مفتاح «أنّ الحروف الشفوية تدلّ على الحزن» (مفتاح، 1982، ص62). وهذا ما نلمحه في دعائه عليه السلام في إستكشاف الهموم حيث يقول: «يا فارِجَ الهَمِّ وكاشِفَ الغَمِّ يا رَحْمَنَ الدّنُيا والآخِرَةِ ورَحِيمَهُما صَلِّ على مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ وافْرُجْ هَمّي واكشِفْ غَمّي» (الصحيفة السجادية، الدعاء الرابع والخمسون). فقد وردت الميم في هذا النصّ إحدى عشرة مرّة فخلق نغمة موسيقى تنقل القارئ إلى جوّ النصّ وإلى طبيعة الموقف ألّذي عاش فيه الإمام من الحزن والهمّ.

وكذلك يتضح التكرار الحرفي المكثف لحرف الحاء في النصّ التالي الذي قاله في الدعاء لأهل الثغور، حيث يقول: «وَاشْحَذْ أسْلِحَتَهُمْ واحْرُسْ

حَوْزَتَهُمْ وامْنَعْ حَوْمَتَهُمْ وألّفْ جَمْعَهُمْ ودَبِّرْ أمْرَهُمْ» (الصيفة السجادية، الدعاء السابع والعشرون).

نلاحظ أنّ حرف الحاء قد تكرر خمس مرات، و«هو من الأصوات المهموسة» (أنيس، د.ت: ص76) فتولدت عنه موسيقية عذبة رقيقة تلائم مضمون الكلام لأنّه «يتصف صوت هذا الحرف بأنّه أغنى الأصوات عاطفةً وأكثرها حرارة، وأقدرها على التعبير عن خلجات القلب ورعشاته، ليتحول مثل هذا الصوت مع البحّة الحائية في طبقاته العليا، إلى ذوب من الأحاسيس وعُصارة من عواطف الحب والحنين والأشواق» (عباس، 1998م: ص178) فالإمام عليه السلام يظهر عن طريق استخدامه لهذا الحرف، حبّه وشوقه إلى حُماة ثغور المسلمين ويرغبهم في عملهم ويدعو الله لهم أن يعضدهم بالنصر أمام أعدائهم.

وفي مايلي كرّر حرف "النون" كثيرا:

مَلَكِ الْمَوْتِ وَأعْوَانِهِ، وَمُنْكَر وَنَكِير، وَرُومَانَ فَتَّانِ الْقُبُورِ، وَالطَّائِفِينَ بِالبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَمَالِك، وَالْخَزَنَةِ، وَرُضْوَانَ، وَسَدَنَةِ الْجِنَانِ وَالَّذِيْنَ لاَ يَعْصُوْنَ اللّهَ مَا أمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ... (الصحيفة السجادية، الدعاء الثالث)

يُلحّ على تكرار حرف "النون"، فيورده سبعة عشر مرّة هنا، مما أكسب النص إيقاعاً موسيقياً، حيث إنّ حرف "النون" يعدّ من أكثر الحروف ارتباطاً بالصوت، وهو في أكثر المفردات اللغوية ذو أثر عظيم في تعديل الصوت وتلطيفه (السيّد، 1978م: 80).

وفي مايلي تكرار حرف "السين":

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى عَدْلاً مِنْهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَآؤُهُ، وَتَظَاهَرَتْ ألاؤُهُ، لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ... (الصحيفة السجادية، الدعاء الأول).

فقد شاع حرفُ السين، وهو حرف عالي الصفير، حادُّ الجَرْس، حيث إنّ التشكيل الموسيقيّ قد اصطبغ بصبغته، وهو حرف ينبئ بالموسيقى وتناغم الأصداء، مما يضفي على هذا النص جمالاً موسيقياً وصوتياً.

والشاهد التالي لتكرار حرف "الدال":

وَتَرْكِ النُّهَمَةِ فِيمَا تَحْوِيهِ أَيْدِي الْعِبَادِ لِتَرُدَّهُمْ إِلَى الرَّغْبَةِ إِلَيْكَ وَالرَّهْبَةِ مِنْكَ، وَتُزَهِّدُهُمْ فِي سَعَةِ العَاجِلِ وَتُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الْعَمَلَ لِلاجِلِ (نفس المصدر، الدعاء الرابع)

نلاحظ أنَّ حرفَ الدال قد تكرر هنا كثيرا، وهو من الأصوات الشديدة الانفجارية، فتولّدت عنه موسيقى صاخبة مجلجلة تخدم الصورة والمعنى. وقد جاء هذا التكرار في المقبوس التالي أيضا:

اللهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَكِدْ لَنَا وَلا تَكِدْ عَلَيْنَا، وَامْكُرْ لَنَا وَلاَ تَمْكُرْ بنَا، وَأَدِلْ لَنَا وَلاَ تُدِلْ مِنّا (نفس المصدر، الدعاء الخامس)

يمكننا القول بأنّ هذا التنويع في بناء الحروف يحقق وحدة صوتية متناغمة ومنسجمة، يكسب الكلمات قيمة جمالية من خلال جرسها المميز ومن الانسجام والتناسق بين الحروف مخرجا وصفة وحركة، تتكون إيقاعية الكلمة وموسيقاها وهذه الإيقاعية مرتبطة بأداء المعنى، ولا تنفصل عنه. (خلف وآخرون، 1392ش: 72).

تكرار الكلمة:

يمتلك تكرار الكلمة في النصّ أثراً عظيماً في موسَقَته. القيمة السمعيّة لهذا التكرار أكبر من قيمة تكرار الحرف الواحد في الكلمة. ويكون هذا التكرار ناتجاً عن أهمية هذه المفردة وأثرها في إيصال المعنى، حيث تأتي مرّة للتأكيد أو التحريض ولكشف اللبس، إضافة إلى ما تقوم به من إيقاع صوتي داخل النصّ.

«هذا النوع من أبسط أنواع التكرار وأكثرها شيوعا بين أشكاله المختلفة» (عاشور، 2004م: 60) و«تكرار الكلمات يمنح النصّ إمتداداً وتنامياً في الصور والأحداث لذلك يعدّ نقطة إرتكاز أساسية لتوالد الصور والأحداث وتنامي حركة النصّ» (الغرفي، 2001م: 84) وممّا لا شك فيه أنّ الكلمات تتكون من أصوات وطاقات لذلك فإن أحسن إستخدام الكلمات المكررة يضفي على النصّ حلية إيقاعية ودلالة موحية. ولا يفوتنا هنا الإنتباه بأنّ «القاعدة الأساسية في التكرار أنّ اللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الإرتباط بالمعنى العامّ وإلّا كان لفظية متكلفة لا سبيل إلى قبولها. كما أنّه لا بدّ أن يخضع لكل ما يخضع له النصّ عموما من قواعد ذوقية وجمالية» (الملائكة، 1967م: 231).

والصحيفة السجادية مكتظة بالكلمات المكررة التي لها أثر عظيم في توفير الجانب الموسيقي وإيحاء معنى الكلام لأنّها وردت في مكانها اللائق من النصّ حيث يستدعيه السياق الهندسي. ومن ذلك لفظة «عافية» فيما يلي من دعائه عليه السلام إذا سأل الله تعالى العافية وشكرها: «اَللّهُمّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وأَلْبِسْني عافِيتَكَ وجَلِّلْني عافيتَكَ وحَصِّنْي بِعافِيتِكَ وأكرِمْني بِعافيتِكَ وأغْنِني بِعافِيتِكَ وتَصَدَّقْ على بِعافيتِكَ وهَبْ لي عافِيتَكَ وأفْرِشْني عافِيتَكَ وأصْلِحْ لِي عافيتَكَ ولا تُفَرِّقْ بَيني وبَينَ عافيتِكَ في الدُّنيا والآخِرَةِ» (الصحيفة السجادية، الدعاء الثالث والعشرون).

لقد وظّف الإمام في هذا المقطع كلمة «عافية» عشر مرّات ليدلل على أنّها محور الموضوع وهي بالغة الأهمّية في الدنيا والآخرة. فنرى أنّ هذه الكلمة المكررّة متينة الإرتباط بسياق النصّ. إضافة على الجانب المعنوي، ففي المستوى الصوتي أضفى تكرارها على النصّ نغماً موسيقية متميزة تطرب أذن السامع. (خلف وآخرون، 1392ش: 72).

ونظير هذا، تكراره لكلمة «شهر» في دعائه -عليه السلام- إذا دخل شهر رمضان حيث يقول: «والْحَمْدُ للهِ ألّذِي جَعَلَ مِنْ تِلْك السُّبُلِ شَهْرَهُ رَمَضانَ، شَهْرَ الصِّيامِ وشَهْرَ الإسْلامِ وشَهْرَ الطُّهُورِ وشَهْرَ التَّمْحِيصِ وشَهْرَ القِيامِ «الّذي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنِ هُدى لِلنّاسِ وَبَيناتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقانِ» (الصحيفة السجادية، الدعاء الرابع والأربعون).

نلاحظ أن كلمة شهر تكررت في هذا المقطع ستّ مرّات فتولدت عنه موسيقية جميلة مفرحة وهذا يشفّ عن فرح الإمام بسبب دخوله في شهر رمضان كأنّنا نراه ينشد أنشودة ويكررها مستمرّاً ليعبّر عن مدى فرحه ويرغّب السامعين للإستفادة من هذا الشهر الذي كله سعادة للإنسان. (خلف وآخرون، 1392ش: 72). وفي المقبوس التالي لقد ألحّ على تكرار "حمدا":

وَالْحَمْدُ لله عَلَى مَا عَرَّفَنا مِنْ نَفْسِهِ ....

حَمْداً نُعَمَّرُ بِهِ فِيمَنْ حَمِدَهُ مِنْ خَلْقِهِ ...

حَمْداً يُضِيءُ لَنَا بِهِ ظُلُمَاتِ الْبَرْزَخِ ....

حَمْداً يَرْتَفِعُ مِنَّا إلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ ...

حَمْداً تَقَرُّ بِهِ عُيُونُنَا...

حَمْداً نُعْتَقُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ نَارِ اللهِ ...

حَمْداً نُزَاحِمُ بِهِ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ ... (الصحيفة السجادية، الدعاء الأول).

فتكرار هذه الكلمة بصورة مكثّفة تدلّ على ما تنطوي عليه نفس الإمام من الإقرار بحمد الله والتوجّه إليه.

وفي ما يلي يقول الإمام:

اللّهُمَّ إنّكَ مَنْ وَالَيْتَ لَمْ يَضْرُرْهُ خِذْلانُ الْخَاذِلِينَ، وَمَنْ أعْطَيْتَ لَمْ يَنْقُصْهُ مَنْـعُ الْمَانِعِينَ، وَمَنْ هَدَيْتَ لَمْ يُغْوِهِ إضْلاَلُ المُضِلِّيْنَ (نفس المصدر، الدعاء الخامس)

فقد قام بتكرار "من" الموصولة. وأيضا له:

يا مَنْ لا يَفِدُ الْوافِدُونَ عَلى أَكْرَمَ مِنْهُ، وَلا يَجِدُ الْقاصِدُونَ أَرْحَمَ مِنْهُ، يا خَيْرَ مَنْ خَلا بِهِ وَحِيدٌ، وَيا أَعْطَفَ مَنْ أَوى إلَيْهِ طَرِيدٌ، إلى سَعَةِ عَفْوِكَ مَدَدْتُ يَدِي وَبِذَيْلِ كَرَمِكَ أَعْلَقْتُ كَفِّي، فَلا تُولِنِي الْحِرْمانَ، وَلا تُبْلِنِي بِالْخَيْبَةِ وَالْخُسْرانِ، يا سَمِيعَ الدُّعآءِ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ (نفس المصدر، الدعاء الثامن والسبعون)

فقد ألحّ على تكرار حرف النداء "يا" لكي يقرّب نفسه لله ويتلذّذ بمنادته.

والنوع الآخر من التكرار في الصحيفة هو تكرار كلمات معينة يتابعها الإمام في بداية بعض المقاطع ليعطي النصّ نغمة موسيقية ومن ذلك قوله:

«أنتَ ألّذي وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رَحمَةً وِعلماً
وأنتَ ألّذي جَعَلتَ لِكُلِّ مَخلُوقٍ فِي نِعَمِكَ سَهماً

وأنتَ ألّذي عَفوُهُ أعلى من عقابه
وأنت ألذي تسعى رحمته أمام غضبه
وأنت ألذي عطاؤه أكثر من منعه
وأنت ألذي إتسع الخلائق كلهم في وسعه
وأنت ألذي لا يرغب في جزاء من أعطاه
وأنت ألذي لا يفرط في عقاب من عصاه» (المصدر نفسه، الدعاء السادس عشر).

يبدو لنا في هذه المقاطع – من جهة اللفظ والموسيقى- ذلك التناغم الموسيقي البديع والإيقاع الجميل بسبب تكرار كلمتي «أنت الذي» ألتين أحدثتا نوعا من الهندسة اللفظية والموسيقية العذبة. فقد حقّق الإمام عليه السلام بتكراره هاتين الكلمتين الموسيقية العذبة التي تطرب الأذن لسماعهما فما يكاد ينتهي المقطع السابق حتى تعود ألحان المقطع التالي عبر كلمتين المكررتين وأمّا من جهة الدلالة فنرى أن الإمام يلحّ على هاتين الكلمتين ليدل على قربه من الله تعالى والذوبان فيه حتى كأنّه عليه السلام لا يرى في الكائنات أحدا سوى الله.

هذا الصنف من التكرار كثير في الصحيفة ولا مجال لنا في ذكر جميعه. ينظر الدعاء الثالث عشر حيث يكرر كلمة «يا من» في صدر عشر المقاطع وكذلك يكرر نفس الكلمة في صدر أحد عشر مقطعا في الدعاء السادس والأربعين ويكرر الكلمتي «أنا ألّذي» في صدر خمس مقاطع في الدعاء السابع والأربعين وغير ذلك من الأدعية التي يتابع بعض الألفاظ في صدور المقاطع ويحقق القيم الصوتية والإيقاعية المتولدة من إعادة هذه الألفاظ وترتيبها، وهذا يؤدّي إلى زيادة التفاعل في كلامه وإثارة إنفعالات المتلقي وتلذذ أسماعه بفعل ذلك التناغم.

تكرار الجملة:

تكرار العبارة أو الجملة هو تكرار يعكس الأهمية التي يوليها المتكلم لمضمون تلك الجمل المكررة باعتبارها مفتاحاً لفهم المضمون العام الذي يتوخّاه المتكلم، إضافة إلى ما تحققه من توازن هندسي وعاطفي بين

الكلام ومعناه؛ وربّما تكون هذه العبارة هي المرتكز الأساس الذي يقوم عليه البناء الدلالي للنصّ فضلاً عن المهمة النغمية التي يؤديها التكرار.

يعدّ تكرار الكلمة في النصّ وتكرار الجملة في السياق ذا أثر عظيم في توفير الجانب الموسيقيّ، ولهذا التكرار من القيمة السمعيّة ما هو أكبر ممّا هو لتكرار الحرف الواحد في الكلمة أو في الكلام (السيّد، 1978م: 80).

يعتبر هذا النمط أشد إيقاعا من النمط السابق إذ يكرر في هذا النمط كلمات متعددة متتاليةً فحين تكرر الجملة أكثر من مرّة فهذا يعني أنّ فيه تأكيداً وتقوية للمعنى وكذلك يدلّ على ترنّم الموسيقى، فعلى قدر الكلمات والأصوات المكرّرة تتمّ الموسيقى. وهذا الأمر نجده واضحاً في صحيفة مولانا الإمام زين‌العابدين فنرى أنّ هذا النوع من التكرار يستغرق المساحة الأكبر من سائر التكرارات في الصحيفة. ومن ذلك تكراره لعبارة «أنت الله لا إله إلّا أنت» من دعائه عليه السلام في يوم عرفة حيث يقول:

«أَنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أَنْتَ، الأحَدُ المُتَوَحِّدُ الفَرْدُ المُتَفَرِّدُ
وأَنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أَنْتَ، الكرِيمُ المُتَكرِّمُ العَظِيمُ المُتَعَظِّمُ الكبِيرُ المُتَكبِّرُ
وأَنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أَنْتَ، العَلِيُّ المُتَعالُ الشَّدِيدُ المِحالُ
وأَنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أَنْتَ، الرَّحمنُ الرَّحيمُ العَلِيمُ الحَكيمُ
وأَنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أَنْتَ، السَّميعُ البَصِيرُ القَدِيمُ الخَبِيرُ
وأَنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أَنْتَ، الكرِيمُ الأكبَرُ الدّائِمُ الأدْوَمُ
وأَنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أَنْتَ، الأوَّلُ قَبْلَ كلِّ أَحَدٍ والآخِرُ بَعْدَ كلِّ عَدَدٍ
وأَنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أَنْتَ، الدّانِي فِي عُلُوِّهِ والعالِي فِي دُنُوِّهِ
وأَنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أَنْتَ، ذُو البَهاءِ والمَجْدِ والكبرِياءِ والحَمْدِ

وأنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أنْتَ، الَّذِي أنْشَأتَ الأشياءَ مِنْ غَيرِ سِنْخٍ وصَوَّرْتَ ما صَوَّرْتَ مِنْ غَيرِ مِثالٍ وأبْتَدَعْتَ المُبتَدَعاتِ بِلا إحْتِداءٍ» (الصحيفة السجادية، الدعاء السابع والأربعون).

فنراه عليه السلام يكرّر العبارة «أنْتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أنْتَ» عشر مرّات للتأكيد على وحدانية الله تعالى وتنزيه ساحته من الشريك والندّ. ولا يخفى أنّ تكرار العبارة في هذه المقاطع يبعث نوعا من التناغم الداخلي في النصّ. فضلاً عن أنّ الكلمات التي تأتي خلف هذه العبارة المكررة تدعم موسيقى النصّ لأنّنا نرى تناسقا كبيرا بين الكلمات في كلّ جملة، فحينا نلاحظ الكلمات كلها تختم بحرف مشترك بينها (مثل الشطر الأوّل والثاني الذين يختمان بحرف الدال المجهورة والميم الشفوية) وحيناً آخر نشاهد بأنّ التناسب في الوزن (مثل: الرحيم العليم الحكيم) والإشتقاق (مثل: الكرِيمُ المُتَكرِّمُ العَظِيمُ المُتَعَظِّمُ الكبِيرُ المُتَكبِّرُ) يجمع بين الكلمات ويقوّي جرس الكلام. (خلف وآخرون، 1392ش: 74).

ومنه أيضا قوله عليه السلام في دعائه في يوم عرفة، حيث يقول:

«لَكَ الحَمْدُ حَمْداً يدُومُ بِدَوامِكَ
ولَكَ الحَمْدُ حَمْداً خالِداً بِنِعمَتِكَ
ولَكَ الحَمْدُ حَمْداً يوازي صُنعَكَ
ولَكَ الحَمْدُ حَمْداً يزيدُ على رِضاكَ
ولَكَ الحَمْدُ حَمْداً مَعَ حَمْدِ كلِّ حامِدٍ وشُكراً يقْصُرُ عَنْهُ شُكرُ كلِّ شاكرٍ» (الصحيفة السجادية، الدعاء السابع والأربعون).

لا يخفى على قارئ هذه المقاطع ما فيها من موسيقى داخلية تمثلت في تكرار العبارة «ولَكَ الحَمْدُ حَمْداً» مما أضفى نغما موسيقياً جميلاً على النص. إضافة على ذلك، لقد أسهم في توفير موسيقى هذا النص تكرار كلمة شكر ومشتقاته في الشطر الآخر بحيث وهب النصّ قيمة صوتية عظيمة يأنس إليه السمع وتميل إليه النفس، إضافة إلى ما إشتمل عليه من

الأثر الخطابي المتمثل في التعبير عن مشاعر الشكر والرضا عن الله تعالي. (خلف وآخرون، 1392ش: 72).

ودعاء مكارم الأخلاق فيما يتضمن عشرين مقطعاً، كل واحد منها يتناول موضوعاً محدداً، وكل موضوع تنتظمه جملة من المفردات، تستهل بفقرة (اللهم صل على محمد وآل محمد) تدليلاً على السمة (الموضوعية) من جانب، وعلى السمة (الهندسية) التي يتطلبها الانتقال من موضوع لآخر وصلها برباط فكري يوحد بين أجزائها من جانب آخر:

(اللهم صل على محمد وآله: وبلغ بإيماني أكمل الإيمان وبيقيني...

اللهم صل على محمد وآله: واكفني ما يشغلني الاهتمام به...

اللهم صل على محمد وآله: ولا ترفعني في الناس درجة إلاّ...

اللهم صل على محمد وآله: ومتّعني بهدىً صالح لا استبدل به...

اللهم صل على محمد وآله: وأبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبة...

اللهم صل على محمد وآله: واجعل لي يداً على من ظلمني... إلخ (الصحيفة السجادية، الدعاء العشرون).

إن هذا (الدعاء) الذي يشكل (وثيقة نفسية) من حيث تضمنه لمبادئ السلوك الصحي، مصوغ وفق عمارة هندسية بالغة الدهشة. وفقرة (اللهم صل على محمد وآل محمد) وُظّفت فنياً بحيث شكّلت نقلة فنية من (الذات) إلى (الموضوع) من جانب، وأداة وصل وتلاحم بين الموضوعات من جانب آخر.

النتيجة:

- يتبيّن لنا من خلال هذا البحث أنّ التكرار ظاهرة واضحة في الصحيفة السجادية، وهو يُعدّ أحد المنابع الأساسيّة للموسيقى الداخليّة.

- الدعاء يظل أكثر الأشكال التشريعية احتشاداً بأدوات الفن، بخاصة عنصر الإيقاع. ولعل السر الفني وراء ذلك، كامن في طبيعة عنصر التلاوة التي يمتاز بها الدعاء عن غيره. وممّا يساعد على خلق أجواء موسيقية هو عنصر التكرار.

- إنَّ التكرار في الصحيفة السجادية ليس للزينة، وليس من نافلة القول الذي يمكن الاستغناء عنه لعدم فائدته، وإنّما هو ذو فائدة موسيقيّة لا تتحقّق إلا به، إضافة إلى الفائدة المعنويّة التي تتحقّق عن طريق الأنغام وأصوات الحروف.

التكرار ذو صلة وثيقة بدلالات الكلام وأغراضه، ففي الصحيفة عندما تتكرّر بعض الحروف فهذا يدلّ على ميزة هذا الحرف ودلالته الصوتية، وكذلك عندما تتكرّر الكلمات والعبارات يشعر المتلقي بأنّ لتلك الكلمة أو العبارة أهمّية بالغة في كلام الإمام، إضافة عن الإيقاع الذي يحدث في الكلام.

- الإيقاع الناتج من تكرار الحروف والكلمات يجذب أذن السامع إليه ويوحي إليه حالات نفسية ودلاليّة.

المصادر والمراجع:

- الصحيفة السجادية.

- ابن معصوم المدني، علي بن نظام الدين (1968م): أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق شاكر هادي شكر، ج5، النجف الأشرف، مطبعة النعمان.

- ابن منظور، محمد بن مكرّم (1414هـ): لسان العرب، ط3، ج5، بيروت، دار صادر.

- الحمداني، سالم أحمد (1989م): مذاهب الأدب الغربي ومظاهرها في الأدب العربيّ الحديث، الموصل، مطبعة التعليم العالي.

- خلف، حسن وآخرون (1392ش): «دراسة الموسيقى الداخلية في الصحيفة السجادية»، اصفهان، مجلة بحوث في اللغة العربية وآدابها، العدد 8، صص 67 – 79.

- السيّد، عزّ الدين علي (1978م): التكرير بين المثير والتأثير، ط2، بيروت، عالم الكتب.

- شفيقة، منصور(2002م): «الحوار وكشف خلجات النفس عند ناتالي ساروت»، مصر، مجلة فصول، العدد 60.

- عاشور، فهد ناصر (2004)، التكرار في شعر محمود درويش، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

- عباس، حسن (1998)، خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق.

- عبدالرحمن، ممدوح (1994)، المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية.

- الغرفي، حسن (2001)، حركية الإيقاع في الشعر العربي المعاصر، إفريقيا الشرق، المغرب.

- القاضي، النعمان (1981م): أبو فراس الحمدانيّ الموقف والتشكيل الجماليّ، مصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ودار التوفيق النموذجيّة للطباعة والجمع الآلي.

- مرتاض، عبد الملك (1995م): تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق")، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

- مفتاح، محمد (1982)،في سيماء الشعر القديم دراسة نظرية وتطبيقية، الطبعة الأولى، دار البيضاء، المغرب.
- المفيد (1410هـ): المقنعة، مؤسسة النشر الإسلامي، ط2.
- الملائكة، نازك (1967)، قضايا الشعر العربي المعاصر، الطبعة الثالثة، منشورات مكتبة النهضة، بغداد.
- الكوراني العاملي، علي (1427م): جواهر التاريخ، المجلد الرابع، دار الهدى، ط1.